

التغريب

أخطر التحديات في وجه الإسلام

أنور الجندي

دار الاعتصام

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك محاولة خطيرة تستهدف دائما معارضة القول بأن هناك : ظاهرة تغريب ، وغزو ثقافى ، أو محاولة احتــواء للفكر الاسلامى ، أو سيطرة فكر وافد .

وتحاول هذه المحاولة أن تعتمد على أمرين :

الأمر الأول : هو القول « أين هذه المؤسسة التى تسمى التغريب » ذلك لأن هذه المؤسسة ليست بناء مجسما له دار ولافتة مكتوب عليها مدرسة التغريب أو مؤسسته وذلك هو تساؤل السذج الأغرار قصيرى النظر البسطاء الذين يعدهم التغريب أحسن أدواته وأكثرهم نفعا لأنهم يقومون بخدمته دون أجر ، وعلى حساب النوايا الطيبة .

والأمر الثانى : هو مداورة التابعين العملاء الذين هم كالحية الرقطاء يخادعون الناس ويخفون حقيقة ولائهم .

ومع الأسف أن الذين يشككون فى التغريب هم من النوع الأول : أولئك الحمقى الذين طبع الله على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم .

ذلك أن التغريب لم يعد بعد هذا الوقت الطويل موضع تساؤل أو تشكيك . وربما كان كذلك فى الثلاثينيات حيث كان يغطى العالم الاسلامى والأمة العربية ظلام كثيف وكانت هنـــاك حقـــائق كثيرة لا تزال محجوبة ، ولعـــل أهمها : بروتوكولات صهيون التى ظهرت فى العالم كله عام ١٩٠٢ وظلت ممنوعة من دخول حمى الشرق والعـــالم الاسلامى حتى عام ١٩٥٢ تقريبا والى ما بعد أن قامت اسرائيل فى قلب الأمة العربية .

ولقد كشف هذه الحقيقة دعاة التغريب أنفسهم ، ولعل أول وثيقة فى هذا المجال هى كتاب (وجهة الاسلام) الذى ألفه هاملتون جب مع جماعة من المستشرقين وأعلن فيـــه صراحة أن هدف البحث هو معرفة :

« الى أى حـــد وصلت حركة تغريب الشرق وما هى العوامل التى تحول دون تحقيق هذا التغريب » . وذلك للقضاء عليها .

ويمكن لقـــارىء الكتاب أن يستكشف مناهج التغريب واضحة ، كالسهام تندفع فى أعماق العيون الضالة والمضللة لتسقط عنها غشاوات الغباء والجهل . وجاء بعد ذلك كثيرون فأشاروا الى ذلك وأوردوا المصادر والوثائق :

من العرب الدكتوران عمر فروخ والخالدى فى كتابهما « التبشير والاستعمار » ومن الغرب : المؤرخ العالمى توينبى فى كتابه (العالم والغرب) .

وهناك عشرات الأدلة والوثائق التى تضع الحقيقة ناصعة

أمام من يريدها لوجه الحق . ولا يمالىء فيها خدمة لأقطاب التغريب ودعاة الجنس وعمالقة الغزو الثقافى .

ومن يتابع كتاب « الغارة على العالم الاسلامى » وهو سابق سبقا بعيدا لكتاب هاملتون جب وقد ترجمه العلامة محب الدين الخطيب فى جريدة المؤيد قبل أن يبدأ هذا القرن بسنوات وكان اسمه الحقيقى واضح الدلالة على الهدف هو : فتح العالم الاسلامى — يجد أن القضية أكيدة واضحة وأن مخططاتها منسقة وموزعة على المؤسسات : مؤسسة المدرسة والجامعة عن طريق الارساليات ومؤسسة الصحافة والثقافة عن طريق الصحيفة والمجلة والكتاب ، ثم هناك مؤسسة أخرى أشد خطرا ظهرت من بعد هى مؤسسة القصة والمسرحية والشاشة والاذاعة المسموعة والمرئية .

وليس بعد ذلك دليل على وجود هذه الحقيقة : حقيقة التغريب ولها دعاتها وكتابها المنبثون فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، ولعل من يطالع بعض الاجتماعات التى عقدت فى احدى دور الصحف الكبرى يجد أن الأمر واضح وجلى وليس فى حاجة الى دليل جديد أمام الأغرار الحمقى ، الذين أعماهم حرصهم على أن يكونوا اتباعا أذلة للأسماء اللامعة من كتاب الجنس والقصة . وأن يكونوا ثمارا فجة فى هذه الشجرة الملعونة التى شاخت وتحطمت .

ولا ريب أن من يرى مؤسسات التبشير والاستشراق وما يصدران من شبهات وتحديات يحكم بما لا يدع مجالا للشك بوجود هذه الظاهرة وحركتها الدائبة .

أن مفهوم مصطلح التغريب فى عشرات من تعاريفه انما

يعنى : خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربى ومقاييسه لتحاكم الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم ولا سيما الحضارة الاسلامية .

ولقد ذكر المبشرون والمستشرقون أن هدفهم هو خلق أجيال تحتقر كل مقومات الحياة الاسلامية بل الشرقية وابعاد العناصر التى تمثل الثقافة الاسلامية عن مراكز التوجيه . ولقد عملت حركة التغريب فى موالاة عجيبة ودأب بالغ على تدمير الشخصيات العربية الاسلامية الباهرة وفى مقدمتها الرسول الكريم وصحابته وأبطال الاسلام ، ومفكروه كما ركزت على احياء النماذج الشاذة والاذاعة بها أمثال الحلاج والسهروردى وبشار وابن الراوندى .

ولقد جرت هذه المحاولات من منطق براق هو الصحف الضخمة والمطبوعات الأنيقة ، مع هالة الأسماء وبريق الألقاب وضجيج الشهرة .

واستخدمت أسلوب الأحكام المسبقة ، وخلق الافتراضات ثم بناء نظريات على أساسها .

ولقد كان دعاة التغريب هم أكثر الناس افسادا للمنهج العلمى الذى يدعو الى التحذير من الحماسة والتقريرية والعاطفة والتعميم فسقطوا فى هذه الاخطار وقارفوا هذه المحاذير ، وان واحدا منهم لم يستطع أن يصدع بكلمة الحق والانصاف ، وكانت كتاباتهم جميعا مشوبة بذلك الاستعلاء والعدوان وعبارة الحقد وأسلوب التعصب .

ولعل من أخطر محاولات التغريب هى محاولة وضـــع البــديل فى مواجهة الأصـــيل ، والعمل على تقــديم بدائل سريعة ذات مظهر لامع ، وتحوطها هالة من الضجيج لكل فكرة أصيلة فى محاولة لتحويل الراى عنها فى ظل طوابع من الاغراء والتزييف . وتحت اسم البحث العلمى والعبارات البراقة الخداعة .

وليست هذه الطريقة جديدة على الفكر الاسلامى ، ولكنها سنة كل العصور ، ولعل أبرز ملامح تاريخ الفكر الاسلامى هو ذلك الكفاح الدائب دون هيمنة الفكر الوافد أو العقليـــة الخارجية التى سلطهـــا عليهم اليونان والهنود والمجوس واليهود ، ولقد بدت هـــذه المقاومة فى صورة ملحمة رائعة كان أعلام المسلمين ومفكريهم ونوابغهم جيـــلا بعـــد جيل يقاومون دون السماح لشخصية الاسلام الحضارية والفكرية ذات الطابع المتميز تحت اسم التوحيد أن تذوب أو تتلاشى فى شخصية حضارية أخرى .

ولقد ظل المسلمون قادرين على ذلك فى مجال الفكر فى العصر الحديث بل لعلهم كانوا أقدر عليه فى مجـــال الحرب والسلاح ، وأن هذا الرفض ليتجلى فى أروع صـــورة فى صـــمود الجزائريين ومقاومتهم فنـــاء شخصيتهم العربيـــة الاسلاميـــة .

ولقد ظل أعلام الفكر الاسلامى فى العصر الحديث يوالون الدق على الطبول فى مواجهـــة أخطر المحاولات الدائبـــة المستمرة لتحريف الفكر الاسلامى (أصوله وتعاليمه وأحكامه)

تارة بالنقص منها واخرى بالزيادة فيها وثالثة بتأويلها على غير وجهها .

ولقد كان من أكبر الأخطار التى واجهتنا دون ارادة حرة ، هو محاولتنا فهم كثير من الأمور من خلال مناهج الغرب ومقاييسه ، هذه المناهج والمقاييس التى كونها الغرب من خلال ظروفه الاجتماعية وتحدياته التاريخية وتركيبه النفسى والاجتمـــاعى .

ان هناك حقيقة لا سبيل الى تجاوزها أو انكارها هى أن فى العالم ثقافتين : اسلامية وغير اسلامية ولا يمكن ان يلتقيا فى اطار واحد ، يخطىء البعض حين يظن أن « التغريب » هو حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب ، وانما الحقيقة أن التغريب هو محاولة خلق (دائرة فكر) تهـــدم ارادة المسلمين والعرب وتنتقص فكرهم وتشيع فيه الشبهات والمثالب ، ثم لا تدفعهم الى أى جانب من جوانب البنـــاء أو النهضة مستمدة من أى فكر آخر .

ومن شأن دائرة هذا الفكر اللقيط ، أن تحول بين المسلمين وبين أى حركة أو نهضة ، وانما تمسكهم ليدوروا فى هذه الدائرة المغلقة ، حتى يلتهوا ، وتجعلهم يفكرون من داخل دائرة مادية خالصة ، معزولة تمـــاما عن العقيدة الايجابية المتكاملة التى علمهم اياها الاســـلام وهداهم اليها منهاجا للحياة قادرا على التقدم من ناحية وعلى مقاومة الغزو من ناحية اخـــرى .

وهم منذ ركنوا الى هذه الدائرة الصماء فقدوا كل قدرة على الحركة الأصيلة ، ذلك أن تركيب الفـــكر التغريبى

الوافد ، انما استخدم أعظم ما استخدم تضارب المذاهب الغربيـــة وصراعها وأحيـــا فى نفس الوقت كل ما أنشأته الشعوبية والزندقة والباطنية فى الفكر العربى الاســـلامى من مفاهيم وشخصيات ، لتقيم من هذا كله تلك الدائرة التى تقتل النفس العربية قتلا وتحول بينها وبين الحياة والحركة والبناء والتقدم جميعا وتضعها فى الذل والظلام والدوار حول وهم معلق وشبح كاذب .

ونحن نعرف أن شخصيتنا تستمد قوتها من قيمنا ، فاذا انحرفنا عن هذه القيم فقدنا الطريق ، وتهنا فى البيداء وذلك هو ما قصد اليه التغريب واستطاع أن يحققه الى حد كبير ، ولعل ابرز محاولات التغريب هى الحيلولة دون قيام خط التقاء بين العناصر والشعوب التى يجمعها فكر واحـــد فى الأصل مصدره القرآن واللغة العربية ومنهج محمد بن عبد الله ، وذلك عنطريق استهلاكها فى الاقليميات والأمميات والمفاهيم التى تفصل القيم وتمزق العناصر التى وحدها الاسلام فى كل متكامل جامع .

فاذا أضفنا الى هذا محاولة هدم المجتمع وتقويضه بنشر الاباحية عن طريق القصة ، وفلسفات الوجودية والهيبية وغيرها عرفنا الى أى مدى تجرى المحاولة الخطيرة .

بل ان ما ألقى الى العرب والمسلمين من مفاهيم الحرية والتقدم والديمقراطية والعدل الاجتماعى وغيره ، انما كان فى الأصل هو « عطاء » الاســـلام للبشرية كلها وللحضـــارة أساسا ، قد أعيد اليها وقد شابه أضطراب كبير وان غلف بأغلفة براقة لامعة .

ولعل أخطر محاولات التغريب انما ركزت على تفريغ العقل والقلب العربى الاسلامى من القيم الأساسية المستمدة من التوحيد والأخلاق والايمان بالله ، ودفع هذه القلوب والعقول عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم والجراثيم عن طريق التعليم والصحافة والكتاب والمسرحية والفيلم والأزياء والملابس .

ومن ثم خرجت هذه المؤسسات جميعا ذلك الجيل الذى حمل دعوة الهدم وسار بها تحت اسم التقدم والحضارة وعمد الى متابعة المستشرقين والمبشرين فى تحريف التاريخ الاسلامى وتشويه مبادىء الاسلام وثقافته وانتقاص الدور الذى لعبه فى تاريخ العالم ، مع خلق شعور بالنقص فى نفوس المسلمين .

وفى عشرات المجالات والقضايا عمل « التغريب » : فى مجالات التفرقة بين الاسلام والعروبة ، وفى النظرة الجزئية ، والفصل بين الدين والمجتمع ، واللغة والتاريخ ، وعن طريق احياء الروابط القديمة التى أبادها الاسلام وقضى عليها نهائيا .

ثم عمد الى خلق شبح كريه أسماه القديم والماضى والتاريخ مع أن أمة واحدة من أمم الشرق والغرب لا تستطيع أن تدعى أنها انفصلت فى أى نهضة عن ماضيها وتاريخها .

وأكبر الدعاوى الباطلة التى يثيرها التغريب هى عالمية الثقافة ، والحضارة البشرية ، ووحدة الفكر البشرى وكلها دعوات لها دواخلها وغاياتها المريبة ، التى تتمثل فى مفهوم واضح هو « تذويب » الفكر العربى الاسلامى و « احتواؤه »

وصهره فى بوتقة الأقوياء المسيطرين أصحاب النفوذ العالمى السياسى المسيطر .

ونحن نعلم ان لكل أمة ثقافتها وقيمها وذاتيتها ومفاهيمها وتراثها ومزاجهـا النفسى الذى شكلته القرون المتطـاولة والعقائد والقيم وانه لا سـبيل أن تنصهر الا الأمم الضعيفة الذليلة ، اما الأمة الاسـلامية والفكر الاسـلامى فانه من المستحيل أن ينصهر أو يذوب فى أى معدة مهما كانت ، ذلك لأنه أعمق جذورا وأقوى قوة من كل قوى الأرض .

(٢)

يمكن أن توصف حركة الغزو الثقافى الحديثة التى بدأت تعمل فى العالم الاسلامى منذ سيطرة الاستعمار الغربى ، أنها امتداد متطور لهذه الحركة التى يحمل لواءها خصوم الاسلام واعداؤه فى كل عصر لاخراجه من قيمه ولاتاحة الفرص للغزو الأجنبى فى السيطرة والاستعمار .

وقد ارتبطت حركة الغزو الفكرى « التغريب » بالاستعمار ارتباطا عضويا وليس شكليا ذلك أن حركة « تغريب الشرق » هى دعوة كاملة لها نظمها واهدافها ودعائمها ولها قادتهـا الذين يقومون بالاشراف عليها . وهى حلقة من مخطط واسع فى تأكيد الاستعمار ودعمه قوامها عمل استعمارى فكرى بعيد المدى قصد به القضـاء على معالم شخصية هـذه الأمة وتحويلها الى صورة غريبة الملامح لتخليصها من القيم والمثل والتراث الذى يتصل بها والذى كان عاملا على تكوينها خلال الأجيال الطويلة فقد كان الاستعمار يفهم أنه بعد أن سـيطر على العالم الاسلامى بجيوشه وقواه العسكرية ونفـوذه

السياسى لابد يوما أن ينسحب فكان لابد من وضع مخطط دقيق لابقاء نفوذه فى المناطق التى احتلها وكان لابد له ان يبقى حتى تتكون له طلائع تخلفه من اهل الأقطار نفسها ، يؤمنون بفكره ، ويسيرون فى اتجاهه ، ويخدمون مصالحه يكونهم عن طريق التعليم فى مدارسه ، ووفق اهدافه ، وتكون أمانتهم له أكثر من أمانتهم لأوطانهم .

وليس كل من تثقف بالغرب ، أو اتصل بالمستشرقين ودوائر الفكر الغربى كذلك . وليس كل من اتصل بالغرب وآمن به استمر على ايمانه ، فان الحقائق لا تلبث أن تتكشف عن زيف الاستعمار ومغالطته ، فلا يلبث الأمر أن يظهر أن هناك خداعا قوامه كلمات براقة ، وشعارات تقول بتنوير الشعوب وتمدينها وتدعو الى الحرية أو الاخاء أو المساواة أو ما شابه ذلك ، ثم لا تلبث الأحداث أن تثبت تعصب الغرب وتناقضه ، وائتماره بهذه الأمة وفرض سلطانه بالحديد والنار ، هناك تتحول الأفكار عنه ويكفر به من كان قد خدع يوما .

ولسنا فى هذا الرأى نذهب الى الغض من شأن الفكر الغربى أو نصرف وجوهنا عنه بل على العكس من ذلك ، نحن لا نراه فكرا غربيا وانما نراه فكرا انسانيا فى الأساس وان انحرف فى بعض مفاهيمه ونحن لا نقفل أبوابنا أمام الثقافات العالمية شرقية وغربية فقد شاركنا فيها ، وكان لنا دورنا الكبير فى بناء هذه الحضارة ، دورنا غير المنكور عند المنصفين من كتاب الغرب ومفكريه .

ولكننا قبل أن نفتح الأبواب لكل الثقافات لابد أن نكون من متانة الاستعداد النفسى والذهنى والروحى بحيث

لا تبتلعنا ثقافات الأمم ولا تحولنا وجهة غير طريقنا ، ولا تفسد معالم شخصيتنا الأساسية الواضحة .

فلقد نقلت أوربا ثقافتنا العربية الاسلامية وأقامت عليها أسس حضارتها ومع ذلك لم يتحول وجهها عربيا أو اسلاميا أو شرقيا .

كذلك نحن . امة لها مقوماتها وكيانها ووجهها ذو الملامح الواضحة ، فلابد أن يبقى هذا « الأساس » ثم لنأخذ ما نشاء من حضارات الأمم وثقافاتها ، وما يزيد شخصيتنا قوة وحياة ويدفعنا الى الأمام في ركب الحضارة .

ولعل « حركة التغريب » لم تكن قاسية الا بالنسبة لهذا الأمر فقد كانت صيحتها على لسان دعاتها وأتباعهم من كتابنا ، ان الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنه لابد من اخذها جميعها أو تركها جميعا وهذا رأى مدخول فيه من الخطأ والاستهانة بالفكر نفسه ما فيه . فما من أمة تستطيع أن تأخذ كل ما عند الأمة الأخرى ، ولقد عاشت الأمم تتقارض الحضارات وتقتبس الثقافات دون أن تتحول عن طوابعها الأساسية .

ولقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبى يعرفان أن السيطرة الكاملة على هذه الأمة أمر مستحيل فان لها من مقومات شخصيتها القوية الصامدة العنيدة ، ومن أسس فكرها العربى الاسلامى القرآنى ما يحول دونها ودون الاستسلام أو الركوع أو الخضوع لأى قوة خارجية اجنبية ، فكان لابد من الحملة على هذه المقومات للقضاء عليها وتحويل وجه الأمة الى قيم أخرى تدمر كيانها وتفرض عليها التسليم للقوى

الخارجية فى أن تسود وتمتد وتتوسع ، وبذلك يبقى الاستعمار حيا فى صورة أخرى من صور النفوذ الفكرى .

اذن فالتغريب هو محاولة « تغيير المفاهيم » فى العالم العربى والاسلامى والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيها وقيمها ، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها واثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ ومعالم الفكر ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

واقد صور لورد كرومر منهج هذا العمل الذى اصطنعته فرنسا وانجلترا وهولندا فى العالم الاسلامى حين قال : « ان الشبان الذين يتلقون علومهم فى انجلترا وأوربا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم ، ولا يستطيعون الانتماء فى نفس الوقت الى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون فى الوسط ممزقين » .

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الارساليات المختلفة التى غزت بلادنا فى صورة مدارس وجامعات وفى البعثات الموجهة الى أوروبا والى عواصم الدول المختلفة بالذات .

وفى هذا ، قال جبران : ان الشباب الذى تناول لقمة من العلم فى مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع الى معتمد أمريكى ، والشاب الذى تجرع رشفة من العلم يسوعية صار سفيرا لفرنسا والشاب الذى لبس قميصا من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا وكان هذا هو الحق الى حد كبير ، فقد غزا الغرب الشرق ، بجحافل من العلماء والمبشرين والمستشرقين والأثريين والصحفيين وشيدت مؤسسات ضخمة فى مختلف عواصم العالم الاسلامى لفتح أبوابها لثقافة

بلادها . وبدأ هذا النفوذ الفكرى يعمل ويسيطر فى مجالات المدرسة والجامعة والصحافة ، والثقافة والتربية والطب والسينما والاذاعة .

وهكذا كان « التغريب » عملا خطيرا دقيقا قوامه الحرب المنظمة للقيم التى عاشت عليها أمتنا ، فى أسلوب مغلف بالضباب ، يحاول أن يثير غمامة كثيفة من التشكيك والتحقير والاستهانة بكل ما لدينا من قيم باسم « القديم » البالى الموروث ، ولم تمض سنوات قليلة حتى كان أبرز المسيطرين على « الصحافة » فى العالم العربى والاسلامى من هؤلاء المتنكرين لقيمنا الذاهبين مع التغريب فقد كانت الصحف التى تعمل للمبادىء تسقط واحدة بعد أخرى ، بينما ظلت الصحف التى تخدم التغريب تقوى وتتوسع . وفى مجال « الترجمة » كان الهدف هو اذاعة القصة المكشوفة والآراء المسمومة ، وفى الأدب بث فكر جديد قوامه القصص وفى مجال المدرسة كانت تقدم الكتب التى تنتقص من قدرنا وتصم تاريخنا بالضعف وماضينا بالذلة وسيطر على الجو الفكرى كله تيار جديد هدام قوامه الاستهانة بكل القيم وفى مقدمتها الدين والمعنويات ، كما فرضت الحضارة على بلادنا أسوأ ثمراتها ، لم ترسل لنا الا تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو بغية تحطيم كيان المجتمع ، وبدت فى جو مجتمعنا ريح تدعو الى الرخاء والمتعة واللذة والتخلص من كل القيود .

ولم تكن هذه الدعوة تهدف الا الى تدمير القيم الأساسية لهذه الأمة ، قيم المقاومة والصلابة والتصميم وتحويل نظر الأمة عن الجهاد والتضحية والفداء فى سبيل الحرية .

كان هدف التغريب واضحا هو محاولة قتل شخصيتنا ،

ومحو مقوماتها وتدمير فكرها ، وتسميم ينابيع الثقافة فيها .

وفى هذا المجال برزت الدعوة الى التحرر من طابع العروبة وطابع الدين وجرت الشعارات الجديدة فى الارتباط بحضارات البحر الأبيض وبأن مصر جزء من أوروبا ، وبرزت دعوات الفرعونية فى مصر والفينيقيـــة فى الشـــام والأشـــورية فى العراق ، وبرزت النعرات القديمة باسم مسيحى ومسلم ، وعربى وبربرى ، وعربى وكردى ، وكان الاستعمار هو الذى يحمل لواء هذه الدعوات ويثيرها ويقلب جمرها ، ويخرجها من كهوف الماضى ليمنحها الحياة ويجمع حولها بعض أعوانه عن طريق الفكر والكتابة بغية تقسيم الأمة .

ولم يمض وقت طويل حتى اعترف كتاب الغرب بحركة التغريب وجاءوا يبحثون مدى ما وصلت اليه وما حققته من هدف . وقال جب فى كتاب « وجهة الاسلام » ان حـــركة التغريب كانت بعيدة المدى بانزال الاسلام عن عرشه فى الحياة الاجتماعيـــة .

وقد عملت « حركة التغريب » فى جملة ميادين ، بدأ العمل فيها غربيون نزلوا الى المعركة ثمة ، ثم اسلموا مقاليد الأمور من بعد الى كتاب من العرب والمسلمين ، حتى يبعثوا الثقة فى نفوس المواطنين الى الصوت الأليف الذى يجد الصدى ، وفى كل ميدان من ميادين العمل كان النفوذ الأجنبى يجد من يعاونه من أبناء الأوطـــان ، واذا كان هجومه على الدين قاسيا ، فان من المؤسف أن نجد كثيرا ممن حمل لواء هذا الهجوم من الذين ثقفوا أول الأمر ثقافة اسلامية وكانت اللغة والدين فى الأغلب هما الميدانان الكبيران للعمل البعيد المدى ،

وان كان التغريب لم يترك ميدانا دون أن يوغل فيه ويسممه ويبعث فيه الشك .

وكانت كلمة « حرية الفكر » والتقدمية ، ومقاومة الرجعية ، والتطور من الكلمات البراقة التى لعبت دورا كبيرا فى خداع الجماهير .

واستطاع التغريب أن يجد المنافذ المرنة الماكرة الى ما يريد دون أن يصطدم بالعقائد أو يواجه المواقف الحرجة .

وان كان المبشرون قد هاجموا المقومات صراحة ، وقاموا بعملهم فى عنف أول الأمر ، فانهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الخطة ، واختفوا من المسرح ، واستبطنوا أهدافهم ، وحولوها الى صورة أخرى أكثر دقة ومكرا . فبرزت أحاديث صورية فيها تمجيد للدين وللغة ولمقومات الأمة فاذا تخدرت أفكار القراء ، ووثقوا بالكاتب وكتاباته ، بدأت عملية التشكيك الخفى ، المدخول الدقيق ، بل ان بعض الكتاب الذين عملوا مع التغريب وهاجموا المقومات الأساسية فى أول الأمر ولم يلبثوا بعد قليل أن تحولوا مظهريا ، وخاضوا الحديث فى أقدس مقدسات الأمة ، عاملين على كسب الثقة الشعبية العامة فى هذا المجال ، حتى يأتى لهم من بعد أن يحققوا فى الخفاء ما يهدف اليه دعاة التغريب ، لقد اختفت المعركة من على المسرح ودخلت الى الكواليس ، واصبح مجال العمل ، هو مناهج التعليم نفسها ، أو مقالات الصحف أو فرض المذاهب الفكرية الغربية ، وتأكيدها والاختفاء وراءها . وخاصة ما يتصل منها بمقاومة القيم العربية الاسلامية ، كالمذاهب المادية والنظريات الفلسفية والنفسية التى تدمر قيم الانسان

وتعريه وتكشفه على نحو يقلل من كرامته ، وفى هذا المجال ظهرت عشرات من النظريات والمذاهب والفلسفات المضطربة الذاهبة الى كل مجال ، وكان من شأن اذاعة هذه المذاهب والنظريات احداث بلبلة فكرية من شـــأنها أن تقضى على الايمان بالمقومات الأصيلة . وتدفع الفكر العربى الاسلامى فى متاهات وتخبطات .

بل ان الخطط التى قدرها الغربيون ازاء موقف المسيحية والكنيسة حين حاولت أن تقف أمام النهضة والحضارة ، فقد حاولوا نقلها الينا مع الفارق البعيد بين موقف الاسلام من الحضارات والنهضات وموقف المسيحية ، فلقـــد كان الاســـلام قادرا دائما على مواجهة كل تطور ، وفيـــه من السماحة والتفتح والاستجابة ما جعـــله صالحا لكل زمان ومكان ، فكان هذا الاتجاه فى نقل موقف الغرب من جمود الكنيسة ليس الا لونا من هذه البلبلة الفكرية التى هى قوام دعوة التغريب .

ولم تكن حملات التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة والدين فى الشرق قائمة على أساس علمى على نحو ما يذهب اليه أسلوب البحث العلمى ، وانما كانت حملات يغلب عليها الهوى والتعصب وتسيطر عليها ريح الحقـــد والاستعلاء وخلق الفوارق البعيدة بين الجنس الأبيض وغيره من الأجناس مع سيطرة فكرة التفرقة بين أصحاب الحضارة وبين الشعوب التى كان لها دورها من قبل فى حمل الحضارة ، حين كانت أوروبا تعيش فى الوحل والظلام ، فاذا أضيف الى هذا ذلك الاصرار العجيب على انكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة على نحو فيه مغالطة وانكار لوقائع التاريخ نفسه تبين الى أى مدى يذهب دعاة التغريب ، فآســـيا

هى المتبربرة ، واوروبا هى المتحضرة وليس اكذب ولا أبعد عن الحقيقة مما يحاول الغربيون أن يقولوه فى هذا المجال من أن التاريخ والحضارة قد بدأت من أثينا ومرت على روما .. ثم اختفت ألف سنة لتظهر من جديد فى حركة النهضة ، أما ما قبل النهضة فلا شىء ، وفى هذا الرأى ما فيه من الخطأ ومجافاة الحقيقة والواقع .

فان قبل اثينا كانت حضارات النيل والفرات ، وقبــل النهضة كان المسلمون والعرب فى دورهم الضخم البعيد المدى حين حملوا لواء الحضارة والفكر ، وترجموا آثار اليونان وزادوا فيها واضافوا اليهــا وحققوا الأسس الكبرى التى قامت عليها الحضارة فيما بعد .

والحق أن حركة تغريب الشرق قامت على المغالطــة والتضليل ، ومحــاولة مســخ القيم والقوميــات العربيــة والاسلامية وادخال قيم ومقومات جــديدة تهــدم شخصيتنا وتصيرنا مسخا لا هو من الشرق ولا هو من الغرب ثم هى بعد ذلك تنكر دورنا وتحاول أن تغض من شأن لغتنا وتاريخنا وتراثنا على نحو لا يصمد أمام البحث العلمى الصحيح ، وهو ما تكشف بتوسع فى مختلف مجالاته وجوانبه .

— ٣ —

استهدف التغريب والغزو الثقافى الغربى للاسلام والعالم الاسلامى والأمة العربية هدفا واضحا مقصودا لذاته هو الاستســلام للسيطرة الاستعمارية عن طريق تحلل القيم وتحريف المفاهيم وافساد الجذور والأسس التى تقوم عليها الذاتية العربية الاسلامية . وبذلك ينصهر المسلمون والعرب

فى الغرب وحضارته وثقافته انصهار الذليل التابع ، الذى يعجب بها ويواليها ويتابعها ويتطلع الى مصادقتها والتبعية لها تبعية كاملة .

ولا شك أن تحقيق هذا الهدف هو أمر بعيد المنال ، بالنسبة لأصالة الاسلام وفكره ومقوماته وجذوره العميقة الضاربة فى التربة العربية الاسلامية خلال خمسة عشر قرنا كاملة ومع ذلك فقد عمد الاستعمار الى تنفيذ مخطط ضخم فى سبيل التغريب والغزو الثقافى ، قام أساسا على مؤسسات ضخمة تحمل لواء العمل فى مجال التبشير والتعليم والصحافة والاستشراق وكلها تناسق بين خططها وأهدافها لتحقيق غاية واحدة ، هذه الغاية هى السيطرة الكاملة على العالم الاسلامى التى عجزت عنها الحروب الصليبية والحيلولة بين الاسلام وأهله وبين القوة والسيطرة والقدرة على الحياة والحركة تخوفا من خطر مفزع متوهم يتمثل فى انقضاض الاسلام على الحضارة الغربية واسقاطها .

قد سار الغزو الثقافى متقدما حملة الغزو العسكرى والسياسى ومرافقا لحملات الغزو التجارى والاقتصادى ، عامدا الى مهاجمة الاسلام واللغة العربية والقرآن والرسول والتاريخ الاسلامى والقيم الأساسية فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية .

كما حرص الاستعمار من ناحية أخرى أن ينقل الى العالم الاسلامى والأمة العربية الجوانب المضطربة من حضارته وفكره ، وأغرق الفكر العربى الاسلامى بعشرات من التحديات من خلال الفلسفات المتضاربة الالحادية والاباحية واذاعتها .

واتصل ذلك بالنظريات ذات المظهر العلمى البراق التى اوجدها الاستعمار ليحاول اقناع الشعوب الملونة بأنهم اقل من الشعوب البيضاء قدرة عقليـــة ، وأن الرجل الأبيض هو الانسان الذى خصته العناية الالهية بتحضير الشعوب المتخلفة ، وهى نظريات تبين من بعد أنها قد سقطت فى بلادها ، ولم تجد من يقبلها أو يعتنقها ولكنها نقلت الى بلادنا لاثارة البلبلة والاضطراب ضمن مخطط التغريب المتعدد الأضلاع .

والواقع أن هذه الفلسفات والمذاهب الغربية التى قذف بها الفكر الاسلامى لم تكن قائمة فى الغرب على هذا النحو من التعدد فى وقت واحد ، وانما جرت خلال فترة طويلة تمتد الى أكثر من أربعمائة عام منذ عصر النهضة الى اليوم ولكن التغريب أراد أن يدفع بها مرة واحدة الى الشرق رغبة فى اثارة الاضطرابات والشكوك وزلزلة العقائد ومع ذلك فقد استطاع الفكر الاسلامى وهو فى مطالع اليقظة أن يواجه هذا الاعصار فى قوة وأن يدحضه ويرده وكاد أن يقضى عليه لولا بقاء النفوذ الأجنبى المؤيد لحركة التغريب المسيطر عن طريق اعوانه واتباعه وقد تمثلت هذه الحملات فى تيارات متعددة اهمهـــا :

١ — اشاعة قضية الأجنـــاس الساميـــة والآرية التى تستهدف الانتقاص من شأن العرب .

٢ — مهاجمة الدين بعامة والاســـلام بخاصة واتهامه بأنه سبب التخلف .

٣ — انتقـــاد العرب والمصريين واتهـــامهم بأنهم ظلوا مستعبدين لليونان والرومان .

٤ — انكار فضل العرب على الحضارة الحديثة .

٥ — الحملة على العقائد والقيم .

٦ — الدعوة الى التجزئة والاقليمية واحيـــاء الدعوات القديمة الفينيقية والفرعونية .

٧ — الدعوة الى ما يسمى ثقافة البحر الأبيض .

٨ — اذاعة الفرقة والخصومة بين الأديان والأجناس : البربر والعـــرب ، الدروز والموارنة ، المسلمون والمسيحيون ، السنة والشيعة .

وقد اصطنع التغريب فى سبيل تحقيق أهدافه مؤسسات عدة أهمها « التبشير » وهى مؤسسة ضخمة عمل بها عدد كبير من المســـلمين فى بلاد الشرق ، بانشـــاء المـــدارس والمستشفيات والمعاهد التى اجتذبت أبناء البـــلاد وفق منهج مرسوم لاخراجهم من الاسلام ، وكانت مؤسسة الاستشراق هى المصنع الذى يمد حركة التبشير بالمادة الخام التى تذيعها عن طريق الكتب والصحافة ومعاهد التعليم .

وقد عمد التبشير الى استغلال الطلاب والمرضى ، وتحويل عقائدهم والتأثير فى مفاهيمهم وتحطيم معنوياتهم وتنشئة أجيال ممسوخة مبلبلة العقائد ، مضطربة الثقافة ، منكرة لقيمها وتراثها ولغتها وتاريخها ويمكن القول بأن المستشرقين هم طلائع المبشرين فقد غلب على معظمهم الهوى والتعصب ، فلم يطبقوا المذهب العلمى الذى نادوا به فى أبحاثهم ، وكان جلة المستشرقين على اتصال دائم بوزارات المستعمرات .

وقد استهدف الاستشراق خدمة الاستعمار عن طريق العـلم ، واسس جميع النظريات الاستعمارية التى قامت على التهوين من شأن الشرق والعرب والاسـلام ، وكلهـا نظريات انخدع بهـا باحثـون أو خدعونا بهـا ورددوها فى مؤلفاتهم ، ولعل أهم ما ركز عليه الاستشراق والتبشير هو « الاسلام والنبى محمد » ، فقد اضافوا الى مفاهيم الاسلام وتاريخ الرسول كثيرا من الافتراءات والادعاءات الباطلة ، وكان مرجليوث ، وفنسنك ، ولويس شيخو ، وهنرى لامانسى من أشد المستشرقين تعصبا ضد الاسلام ورسوله .

وقد كشف الباحثون المنصفون أخطاء المستشرقين وسوء نواياهم ، من أمثـال : حسين الهراوى ، وعمر فروخ ، وشكيب ارسلان ، ومحب الدين الخطيب ، ورشيد رضا ، وقد استهدف مخطط التبشير أهدافا أساسية واضحة .

أولا : تشويه الثقـافة الاسلاميـة والتراث العـربى والاسلامى .

ثانيا : افساد الخصائص المعنوية فى البـلاد العربيـة والاسلامية .

ثالثا : خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص .

رابعا : توسيع شقة الخلاف بين الطوائف والمذاهب واثارة النزاع بين الأديان .

خامسا : اخضـاع العـالم الاسلامى والأمة العربيـة للاستعمار الغربى .

سادسا : اعداد شخصيات عربية تستسلم ولا تقـــاوم النفوذ الأجنبى .

وقد استطاع التبشير عن طريق التعليم تزييف التاريخ الوطنى الاسلامى والعربى والطعن على العرب والاسلام .

ودفع المبشرون أعوانهم وتلاميذهم الذين خرجتهم معاهد الارساليات الى الصدارة فى مجال الكتابة والصحافة واثارة الشكوك والاتهامات واذاعة الالحاد والاباحة ، ورمى اللغة العربية والاسلام بكل نقيصة .

وكان أبرز ما ركز عليه التبشير هو محاولة اخضـــاع الاسلام لمذاهب الفكر الغربى ، وذلك بانتقاص حقيقة الاسلام التى تقوم على أنه عقيدة ونظام اجتماعى فى آن واحد .

* * *

دار العلوم للطباعة

القاهرة : ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)
ت : ٣١٧٤٨٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٤٧ / ٧٩
الترقيم الدولى ٨ — ٣٠ — ٧٣١٨ — ٩٧٧